Mind and its influence in the Text Construction for the rhetorists In the seventh Century of the Hegira

العقل وأثره في بناء النص عند البلاغيين في القرن السابع الهجري

أ.م.دمكي محي عيدان الكلابي زينب عبدالامير متعب الحسناوي
جامعة كربلاء

ملخص البحث

يعد العقل عاملاً اساس عند بناء النص الادبي فله دور في جعل المبدع في مأمن من الزيغ وابعاد النص عن الوهم والخرافة، فضلاً عن دوره في تأويل المعنى عند المتلقي؛ لذلك عدّ العقل عند البلاغيين مرتكز الابداع لان بناء النص على وفق معطيات العقل يجعله اكثر مقربة من ان يوصف بالادبية فعنوا بدوره في ابراز وظيفته في تنظيم المعاني والصور داخل بناء النص .

وستحاول هذه الدراسة ان تتفحص معطيات العقل في اراء البلاغيين العرب في القرن السابع الهجري ومنهم الرازي والسكاكي وابن الزملكاني وحازم القرطاجني وعلى وفق المنهج التكاملي .

ولقد اشتمل هذا البحث على تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة اشتملت اهم النتائج التي توصل اليها البحث .

Abstract :

The Arabic Rhetoric in the seventh century of the Hegira included many directions . The more important ones are , the literary direction , the philosophical direction and the psychological direction as well as the inimitability of The Holy Koran .

The Arabic rhetoric , therefore , was a rich source in this century for studying the mind influence and its role in the literary text construction to the rhetorists' thought . Concerning the study framework , it includes preface , three sections and conclusion

The preface shows the mind importance in the text construction .

The first section studies the mind construction level .

The second section studies the mind and the imaginary level .

The third section studies mind meaning . The conclusion includes the most significance results .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي ذكره شرف للذاكرين وأفضل الصلاة والسلام على (الصادق الأمين) محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وعلى صحبه المنتجبين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد .. فان البلاغة العربية مصدر ثر للأفكار والاتجاهات الأدبية في التعامل مع النصوص الإبداعية وهي فضلا عن هذا ذات توجهات وغايات كثيرة تشكل عماد اغلب الدراسات الحديثة وان لم تكن معروفة بهذه الأسماء التي تعرف بها هذه الاتجاهات في وقتنا الحاضر ، ولعل احدى أهم التوصيات لدراسة النصوص الإبداعية تجلت في دراسة العقل وأثره في بناء النص ،ولما كان عمر البلاغة العربية تأليفا وتصنيفا يمتد لثمانية قرون تقريبا وهو عمر يصعب ملاحقة جزئياته ارتأينا ان تحدد المدة المدروسة بالقرن السابع الهجري لأسباب منها: اكتمال الرؤية البلاغية في هذا القرن فضلا عن اشتمال هذا القرن على اغلب الاتجاهات في التأليف البلاغي فقد كان الرازي والسكاكي معتزليين وكان ابن الأثير من كبار المدرسة الأدبية في التأليف البلاغي وكان حازم القرطاجني على رأس المدرسة الفلسفية والنفسية في هذا التأليف فضلا عمن عاشوا في هذا القرن من أصحاب دراسات الإعجاز ألقراني ومنهم (ابن ابي الاصيع المصري) لذلك رأينا أن هذا القرن مجتمع مثالي لدراسة بناء النص في فكر البلاغيين ورؤيتهم وماستتبع ذلك من مقررات اذ تتركز القيمة العلمية لهذه الدراسة في أنها ستفتح المقولات البلاغية من داخلها لتقف على جملة أشياء منها إثبات أن ما ادعي من جدة هذا الموضوع وجعله من نتاج الفكر الحديث لا يمكن قبوله على نحو الإجمال ومنها الوقوف عند حقيقة التفكير البلاغي في القرن السابع الهجري ورصد مقولاتهم وأرائهم ومناقشاتهم فيه

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فلم نجد منهجا يلائم طبيعتها الا المنهج التكاملي الذي يجمع المناهج الأخرى ويفيد منها كلها لتقديم الرؤية المتكاملة والشمولية لفكرة الدراسة فقد كنا حريصين على متابعة تطور الفكرة عبر التاريخ اللغوي والبلاغي على وجه التحديد مظهرين التأثير والتأثر من اجل ان نصل الى تقويم حقيقي للقيمة العلمية للرؤى والأفكار وكنا حريصين على دقة

النقل وأمانة نسبة الآراء الى أصحابها غير مقولين إياهم ما لم يقولوا ، ولم يغب المنهج المقارن عن هذه الدارسة أيضا فكنا موازنين ومقارنين كلما وجدنا الى ذلك ضرورة وسبيلاً.

أما هيكلية الدراسة فقد اشتملت على تمهيد وثلاثة مباحث أما التمهيد فقد توجه لدراسة أهمية العقل في بناء النص.

.وعرضنا في المبحث الأول : العقل والمستوى التركيبي، وفي المبحث الثاني: العقل والمستوى التصويري ، والمبحث الثالث : العقل والمعنى.

وخاتمة البحث تضمنت ابرز النتائج التي توصلنا اليها .

ونأمل ان يكون هذا البحث قد جاء على منهج سليم والقى الضوء على قضيته الاساسية فان وفقنا فبفضل الله تعالى وكرمه وان كان امرا اخر فنلتمس العذر فكانت غايتنا على حسن نية لتقديم ما فيه منفعة للدارسين وما فيه خدمة للغة العربية لغة القران الكريم وما توفيقنا الا بالله هو حسبنا وعليه توكلنا واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى اله الطيبين وصحبه المنتجبين.

التمهيد / / (أهمية العقل في بناء النص)

لقد عني العرب منذ القدم بدور العقل في تنظيم الكلام الملقى أو النص المكتوب, فالعقل مركز الإنتاج ومركز التحليل الكلامي ومنه تنطلق إشارات القبول والإعجاب أو الرفض والازدراء, ومن ثم فلا طريق للكلام غير المرور بمنظومة العقل والخضوع لنواميسها والاتكاء عليها إنتاجا وتلقيا.

وأشار الجاحظ(ت255هـ) إلى دور العقل وأهميته حين قال: ((**للأمور حكمان حكم ظاهر للحواس, وحكم باطن للعقول, والعقل هو الحجة**))[1] ، وعليه المدار وهو أحد مرتكزي الحكم.وشكل العقل واحدا من المحاور التي حرص العرب على أن يمدحوا أفاضلهم بها وعد العقل والتعقل من فضائل الممدوح الأربعة التي حرص العرب على الإتيان بها وهي: العقل والعدل والعفة والشجاعة[2]

ويتمظهر دور العقل عند بناء النص ((**ببناء أخلاقي يطرد الضار ويبقى على النافع**))[3] فالنص الإبداعي يبدأ عندما يتخلص المبدع من الانفعالات والضغوطات التي يمارسها عليه الواقع, فيشرع العقل في تنسيق تلك الانفعالات الصادرة عن الواقع[4] لأن ((**الإنسان يشترك مع الحيوان في ضرورة التعبير عن عواطف الفرح والألم والخوف والغضب والحب وهذا التعبير الوجداني عند الحيوان لا يتعدى حدود المنفعة, ولكنه عند الإنسان متصل بسبب قوي إلى نفس الحدود النفعية ثم يجاوزها إلى آفاق أخرى يكون التعبير فيها عن الوجدان غير مقصود به حفظ الحياة, وإنما هو التعبير**))[5] يعمل العقل على تجنب الوقوع في الخطأ إذ لا يمكن الاستغناء عن دوره وأثره في السيطرة على انفعالات المبدع عند التعبير عن العواطف فهو الضابط للانفعالات بما يضمن وقوع العمل الفني ضمن دائرة القبول في مقابل أن ((**زوال العقل من التجربة الشعرية يحولها إلى خرافة خيالية أو شعورية**))[6].

والمبدع الحقيقي هو من يصنع تمازجاً وتآلفاً بين الأفكار والمشاعر ويحرص على إظهارهما متعاضدين في صياغة النص وبنائه[7] ومن ثم كان للعقل حضوره المؤثر في مستوى التلقي والحكم على النص لما للعقل من مدخولية في الذوق, لأن الذوق يستمد من العقل كثيراً من أحكامه لاسيما عند من يعتقد بالجمال الموضوعي, فيكتسي الذوق هنا حلة التعقل ويكون له من الوضوح ما يشرق في كل نفس, وقواعده كقواعد العقل المتسمة بالثبات والاطراد, مما يجعل المبدع الذي يؤتى حدة الذهن في مأمن من الزيغ لأنه لن يحيد عن قواعد صنعته التي بنيت على معطيات العقل وتخضع له على مستويي الإنتاج والتلقي[8] ومن ثم عدّ العقل في نظر كثير من البلاغيين العرب, عاملاً أساسياً في بناء النص, وقد شغل حيزاً كبيراً من تفكيرهم ومقارباتهم لأنه وسيلة للكشف عن المعنى وتأويله وإظهاره, وعدّه جوهر العملية الإبداعية ومحورها التنظيمي، إلاّ أن مفهومه بقى خارج تعاملاتهم وجنحوا عن التنظير في ماهيته ومفهومه ولعل العذر عندهم هنا واضح من حيث إنّهم نظروا إليه أنه واحد من معطيات الفلسفة وعلم الكلام ولم يجعلوا من وكدهم التعرض إلى الخوض في كنهه وإنما حبسوا جهودهم على الحديث عنه من خلال وظيفته في بناء النص والتواصل معه, فهم يرون فيه مركزا لإدراك الموجودات الخارجية التي تتحول إلى معانٍ تدخل ضمن بياناته ليتم التعبير عنها عن طريق اللفظ[9] بمعنى أن العقل من وسائل إنتاج النص لأنه عند حازم القرطاجني (ت 684 هـ) وسيلة لتأويل المعنى وإظهاره [10] فضلاً عن كونه أداة تعصم النص عن السفاهة والوهم والقبح[11] وهو عند أبن مالك (ت 686 هـ) احد أهم مرتكزات علم البيان لأن إيراد المعنى الواحد بطرائق مختلفة إنما يتم بواسطة العقل وحصيلة جهد من الربط العقلي بين المعاني سواء أكانت الصور مجازية أم حقيقية[12].

لقد كان الحديث في العقل وأثره في بناء النص مبثوثاً في كتبهم فما كانوا ليدعوا فرصة تمر دون أن يعرّجوا على ذكر العقل وأثره في صناعة النص والتعبير عن المعاني والربط بين أجزاء النص ولأننا يمكن أن نلحظ وجوداً مكثفاً للعقل ومعطياته في المستوى التركيبي والمستوى التصويري بدرجة كبيرة فضلاً عن الحديث عنه عندما يتعرضون للمعنى وتأويله ارتأينا أن ندخل إليه من خلال هذه المباحث:

المبحث الاول /العقل والمستوى التركيبي في النص/

ارتبط دور العقل بعلم المعاني, في عدد من الاتجاهات التي يبحث بها هذا العلم, فقد ربط فخر الدين الرازي (ت 606 هـ) بين العقل والخبر فقال: بإنّ الإنسان ((**إذا ظهر له من البعيد ما ظنه طيرا سماه بذلك, ثم ازداد القرب, وعرف أنه إنسان , سمّاه بذلك فالإخبار عنه بهذه الأشياء عند اختلاف التخيلات يدل على أنّ الخبر لا يتناول إلاّ حكم العقل بذلك**))(13).

إنّ ما يتمثل من شيء أمام الإنسان, فإن الإخبار عنه متوقف على إدراك العقل لذلك الشيء, فكلما كان دور العقل قويا كان الخبر صحيحا لأنه يعتمد قوة الادراك وصحته, فيكون الحكم مطابقا للواقع ومرادفا للحقيقة. وأخضع السكاكي أقسام الخبر لحكم العقل, قاصدا به عقل المتلقي والمبدع عندما قرر بأن للعقل دورا في أداء المبدع وفهم المتلقي, أما من جانب المبدع فإنّ ((**من المعلوم أنّ حكم العقل حال إطلاق اللسان, هو أن يفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطق به تحاشيا عن وصمة اللاغبة**))(14). فالعقل عنده يقتضي أنّ ما ينتجه المبدع هو للإفادة المعنوية وإيصال المراد إلى المتلقي, وبحسب درجة تمكن الحكم واستقراره في ذهن المتلقي يلقى الخبر((**فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم, فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم, وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك, فحسن الكلام تحليته بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة**))(15) ولا يختلف ابن مالك عن السكاكي حيث يقول: ((**من المعلوم أن حكم العقل حال النطق هو أن يكون قصد المتكلم بكلامه إفادة المخاطب بقدر الحاجة, فإذا ألقى الجملة إلى خالي الذهن عنها ليحضر طرفيها عنده كفر فيه حكمه, ويتمكن لمصادقته إياه خاليا, وإذا ألقاها إلى طالب لها متردد في الإسناد استحسن تقويته بإدخال اللام أو إنّ, فإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه استوجب حكمه ليترجح تأكيداً بحسب ما أشرب المخالف والإنكار**))(16)، فالمدار عنده على العقل وإنما يلقى الخبر بلحاظ درجة القرار بين العقل والحكم ومن ثم تراهم يلقون الخبر خالياً من المؤكدات إن لم يكن للعقل مشكلة مع الفهم وقرار المعنى وثبات الحكم له عند المتلقي وإن شعر المنتج إن في عقل المتلقي ضعفاً في تلقي الحكم والاعتقاد به احتاج إلى تقويته بحسب درجة الضعف تردداً و شكاً أو إنكاراً ومن ثم فإن أحوال الخبر((**ترتبط بالمتكلم والمخاطب معا, فالمتكلم يعامل المخاطب على أنه خالي الذهن متردد وسائل, أو خالي الذهن شاك, أو خالي الذهن منكر وكل ذلك مرتبط بمقاصد المتكلم ومعرفته وبتصوره لأحوال المخاطب**))(17) وقسّمت أحوال الخبر عند البلاغيين على وفق المستويات الإدراكية, فكل قسم ارتبط عندهم بحالة ذهنية معينة, فلعب العقل دوراً كبيراً عندهم في صياغة الخبر عند بناء النص وتلاهم في ذلك الأمر القزويني (ت 739 هـ)(18).

يتضح لنا من خلال فكرة حال المتلقين من حيث الاعتقاد والأفكار أنّ للمتلقي مقاماتٍ وأحوالاً ينبغي على المنتج مراعاتها عند بناء نصه فليس المعتقد بالحكم كالشاك أو المنكر وإنّما لكل منهم سبيله وللنص معهم أحوال. ولا ينبغي التغافل عن هذه المسألة وإلاّعدّ المتلقون متلقياً واحداً وهذا مما سيقود إلى جملة من المخطورات على مستوى الإنتاج وعلى مستوى التلقي مما يضعف النص عند متلقيه فضلا عن كون الجاهل بهذه المبادئ جاهلا بأصول الصنعة.

وكان للعقل دور في أحوال الطلب فقد عدّ السكاكي التمني والاستفهام أساليب طلب عقلية تخضع للعقل(19) وتحدث ابن مالك عن دور العقل في الإثبات والنفي لأحوال الطلب فقال: ((**ولا يخرج عن أن يكون حصول ما في الخارج في الذهن, أو حصول ما في الذهن في الخارج, من تصور أو تصديق مثبت أو منفي**))(20) فيتجلى أثر العقل في موضوع الإنشاء, إذ لما كان الخبر ينظر إلى مسألة وجود الصورة الخارجية والتصور الذهني كان الإنشاء ينبني على تحطيم هذه العلاقة الثنائية فلا مصداقاً خارجياً يمكن الحكم بصدقه وكذبه، ولما كانت الحال على هذا الشكل انتقل العقل ليبحث عن شكل العلاقة بين المعنى والجهة المتوجه إليها لأنّ العقل في الاستفهام مثلا سينظم عملية استيراد المعلومة فإن كانت موجودة أصلا نحا به إلى توجهات جديدة خارجة عن مقتضى الظاهر, وعلى العكس من ذلك كانت أساليب الأمر والنهي والدعاء والنداء التي يعمد العقل فيها إلى نقل المعنى من الذات الممتلئة بها إلى المتلقي الفارغ منها.إن عملية الانتقال هذه في أساليب الطلب بين المنتج والمتلقي عملية غير يسيرة تخضع لمعطيات العقل الذي ينسق الانتقال بين المتلقي والمنتج في الإفادة من أحكام الكلام ليكتسب النص قدراً من المقبولية عند متلقيه.

وعقد ابن الأثير (ت 637 هـ) صلة بين العقل والإيجاز بالحذف عد بناء النص, وتلك الصلة وسيلة لفهم المعنى لأن ((**الإيجاز بالحذف أقوى دليلا على زيادة المعاني على الألفاظ لأنا نرى اللفظ يدل على معنى لم يتضمنه, وفهم ذلك المعنى ضرورة لابد منه**))(21)و يتمثل دور العقل في عملية الحذف عند بناء النص بأمرين:

1- دوره في أمن اللبس فيترتب على العقل أن يقدم للمتلقي نصا بعيدا عن الغموض واللبس وأن يضع له دلائل ترشده إلى المقصود عند الاعتماد على إجراء الحذف في النص.

2- دوره في تضمين المعاني الكثيرة في اللفظ القليل فيترتب على المبدع أن يبني نصاً مفتوحاً غير محدد من أجل أن يعطيه سمة الشمول.

وأكد ابن الزملكاني (ت 651 هـ) في التقديم والتأخير دور العقل في إدراك المعنى, لأن عدم فهم المعنى يبعد النص عن الحقيقة التي يتوخاها العقل فقال:

((**اعلم أن هذا الفن من أهمل ضبطه فقد بعد عن التحقيق شأوه وضعف عن إدراك المعنى الدقيق رأيه وأغفل أصلا عظيما من علم البيان, وجهل جملا من آي القرآن**))(22).

اتفق البلاغيون على أن التقديم والتأخير هو تبادل المواقع بين الكلمات داخل بناء النص لتأدية أهداف بلاغية أسلوبية, فأشار البحراني (ت 679 هـ) إلى أنها تهدف إلى تقديم الأهم وهذا أما يقتضيه العقل كقوله تعالى: ((**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ**))(23) فقال البحراني

((**تقديم الشركاء أولى, لأنّ المقصود التوبيخ على الشرك بخلاف ما لو أخر**))(24).

ويقدّم الكل على الجزء لأنّه أعرف والدليل على المدلول والناقص على التام والمتبوع على التابع والاسم المظهر على ضميره وغير ذلك مما يجب تقديمه عند بناء النص لحصول الفائدة(25).ويأتي التقديم لرفع الشك عن أمر بتقديمه عند بناء النص فإذا أراد المبدع رفع الشك عن الفعل أو الاسم قدمه على غيره, وجعله فاتحة الكلام(26) ومثاله قول القائل (أركبَ الأميرُ) فإن الركوب هو المشكوك فيه(27).
ويأتي للإختصاص مثاله تخصيص الفعل بالفاعل إذا قدمت الفاعل كالقول (أنا فعلتُ ذلك الأمرِ) يعني الإختصاص به دون غيره(28).
نستنتج من ذلك أن دور العقل في عملية التقديم والتأخير عند بناء النص يتمثل بأمرين: **الأول:** دوره في الربط بين مواقع الكلمات في الذهن ومواقعها في الكلام (النص) فلا بد أن تكون صورة عنها.
الثاني: دوره في عملية تقديم الأهم وماله سمة التقديم فلا يليق به غير هذا المكان فيمنح ثمة تقنيات من مثل رفع الشك وتقديم الاختصاص من أجل أن يلقى النص القبول وللعقل الدور المؤثر في ذلك وقرر حازم أن إيراد بعض الأساليب في غير محلها عند بناء النص كالتقديم والتأخير, أو إيراد المتصل في صورة المنفصل يسبب الإخلال في البناء التركيبي للنص وكذلك حذر من فرط الإيجاز, فتلك الأخطاء تسبب غموض المعنى, مما يسبب ضعف الفهم، لأن العقل يرفض وجود تلك الأساليب في غير محلها(29).

العقل وقضية الصدق والكذب

لقد اختلف النقاد والبلاغيون العرب في قضية صدق النص أو كذبه استناداً إلى مقولتين (أعذب الشعر أكذبه) و(أعذب الشعر أصدقه), فهذه القضية البحث فيها ((**بحث عقلي**))(30) يستند إلى حكم العقل.
فمن النقاد الذين دار الحديث بينهم في تلك المسألة (ابن طباطبا) (ت 322 هـ) الذي ناصر الصدق فأوجب على المبدع أن يعتمد الصدق والوفق في التشبيهات(31) وخالفه العسكري (ت 395 هـ) حين قال عن الشعر: ((**كان أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة, والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة**))(32).
وتحدث البلاغيون في القرن السابع الهجري في مواضع كثيرة في هذه المسألة فمنهم من تعرّض لها في معرض حديثه عن الخبر, فعرّف فخر الدين الرازي الخبر بأنّه: ((**القول المقتضي بتصريحه نسبة معلوم إلى معلوم, بالنفي أو بالإثبات, ومن حده بأنه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالخبر لزمه الدور ومن حده بالمحتمل للتصديق والتكذيب المحدودين بالصدق والكذب واقع في الدور بمرتين**))(33).
أوجب البلاغيون عند بناء النص أن يكون النص صادقاً على وفق مطابقته للواقع فـ ((**مرجعه كونه صدقا أو كذبا عند الجمهور إلى مطابقة ذلك الحكم للواقع, أو غير مطابقته له**))(34). وأشار السكاكي إلى مسألة (التأويل) وأثرها في بناء النص, فذكر في المجاز العقلي عبارة (ضرب من التأويل) معللاً ذلك بالاحتراز عن الكذب(35) يسهم العقل بدور فعال في مسألة التأويل ففي قولنا (كسا الخليفةُ الكعبةَ) فليس في العقل امتناع أن يكون الخليفة هو الذي كسا الكعبة(36).فمعنى ذلك أن التأويل هو الفاصل بين الكذب والصدق وهو طريق الوصول إلى المعنى الذي أراده المتكلم, فالمجاز العقلي هو إسناد الفعل إلى غير فاعله حقيقة بالتأويل ويتوجب في التأويل أن تكون هناك قرينة أو علاقة تسهم في إيصال العقل إلى فهم المعنى اذ ان العقل يقوم بالتأويل فبذلك يعدّ التأويل واسطةً لرد الكلام إلى المعنى المقصود فيه بحسب القرائن الموجودة داخل بناء النص.
وجمع حازم القرطاجني بين قضية الصدق والكذب والنوع الأدبي, فلقد تحدث عن الخطابة والشعر, ففي الخطابة قال ((**كان اعتماد الصناعة الخطابية في أقاويلها على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين... وجب أن تكون الأقاويل الخطبية اقتصادية كانت أو احتجاجية- غير صادقة ما لم يعدل بها عن الإقناع إلى التصديق لأن ما يقوم به وهو الظن مناف لليقين**))(37).إن الأقوال الخطابية تقوم على الظن وليس على اليقين, فلذلك أوجب فيها أن تكون الأقاويل غير صادقة بوصف أن الظن هو المقوم لها.
واسقط حازم القرطاجني مسألة الصدق والكذب من ميزان الحكم بشعرية الكلام فقال ((**تكون الأقاويل الشعرية اقتصادية كانت أو استدلالية غير واقعة أبدا في طرف واحد من النقيضين اللذين هما الصدق والكذب, ولكن تقع تارة صادقة وتارة كاذبة, إذ ما تقوم به الصناعة الشعرية وهو التخييل غير مناقض لواحد من الطرفين... وليس يعد شعرا من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام مخيل**))(38). فالخيال هو ما تقوم عليه النصوص الشعرية, أما الصدق والكذب فلا تميل الأقاويل الشعرية لواحد منهما, فلا يوجد عند حازم شعر صادق وشعر كاذب, بل هو كلام مخيل, فهو يفضل في النص الشعري الابتعاد عن الصدق والكذب الخالص, ولقد انفرد حازم بالحديث عن الدواعي التي يضطر بسببها الشاعر إلى القول الصادق أو الكاذب في الشعر, فقال: ((**وإنّما يرجع الشاعر إلى القول الكاذب... فقد يريد تقبيح حسن وتحسين قبيح... فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة**))(39).إنّ ما يدفع المبدع إلى القول الكاذب القصد إلى تزييف حقيقة الشيء, فيورد القبيح حسناً والحسن قبيحاً. ويكون القول صادقا فيما: ((**إذا قصد تحسين حسن وتقبيح قبيح**))(40) فالمبدع يصور الحقائق كما هي في الواقع دون تزييف فيصبح النص صادقا. ولكننا نرى حازماً متردداً في قبول الصدق في الشعر, فما سبق من قوله يُظهر الشعر كلاماً مخيلاً, ولكن وجدناه في موضع آخر يقول: ((**أن أفضل المواد المعنوية في الشعر ما صدق وكان مشتهرا**))(41).فعمليات الإدراك ما لم تعمل تحت سلطان العقل فإنها تصور المعاني من غير انتظام, فتصبح ملتبسة(42)، ويرتبط بقضية الصدق والكذب حديث البلاغيين عن المبالغة, فقد ناقش أمرها ابن أبي الإصبع المصري بعد أن ذكر آراء من قال (خير الشعر أصدقه) و(أعذب الشعر أكذبه), فهو توسط بين الحالتين حيث قال: ((**فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ, وعائب المبالغة على الإطلاق غير مصيب, وخير الأمور أوساطها, وكيف تعاب المبالغة وقد وجدت في الكتاب العزيز**))(43)، أما ابن الأثير فإنه قال: ((**إن أحسن الشعر أكذبه, بل أصدقه أكذبه**))(44) ومثل لذلك بقول عنترة:

[الكامل]

وأنا المنيَّةُ حينَ تَشْتجُر القَنا　　　والطَّعنُ مني سابقُ الآجَالِ(45)

فقصد ابن الأثير بـ (الصدق) الصدق الفني لا الصدق الواقعي لذلك فإنه عندما يقول (بل أصدقه أكذبه) فإنه يقصد أصدقه بناءً وغايةً وأصابة ًوتخييلاً للقصد وليس مطابقته للواقع.

ومن ثم يمكن الظفر بنتيجة مهمة هنا تتمثل في السعي نحو الابتعاد عن كل ما يقع في دائرة الصدق الواقعي التي ليست من مهام المبدع للنص الأدبي الذي يبني نصه على التخييل.

ويرى حازم في المبالغة خروجاً عن الحقيقة فإن المبدعين إذا قصدوا ((**المبالغة في تحسين حسن وتقبيح قبيح فيتجاوزون حدود أوصافه الحقيقية ويحاكونه بما هو أعظم منه حالا أو أحقر ليزيدوا النفوس استمالة إليه أو تنفيرا عنه**))(46).وعندما يتحدث حازم عن المبالغة وربطها بالتشبيهات, يوجب أن تكون التشبيهات صادقةً, فالشيء يشبه الآخر, وهذا أمرٌ صادقٌ, بدليل أنّ تشبيهات القرآن الكريم صادقةٌ مثل تشبيه الماء بالسراب, والهلال بالعرجون القديم(47), وتخرج المبالغة النص عن حدود العقل, فالوصف المبالغ فيه يقلل من شأن المعنى ويضعف النص, فقال ابن مالك في المبالغة ((**هي أن يكون للشيء عندك وصف, فتزيد التعريف بمقدار شدته أو ضعفه, فتدعى له من مقدار زيادة الشدة أو الضعف ما يستبعد أو يحيل العقل ثبوته له**))(48) , ويرى خير الأمور أوسطها, بالابتعاد عن الإفراط في المبالغة(49).شغلت قضية الصدق والكذب بال النقاد والبلاغيين ولكن ((**النظرة التي تدعو إلى التزام الشاعر بمطابقة معانيه للواقع وصحتها وثبوتها للعقل والمنطق... كانت هي الأقوى والأوضح لأنها الأقرب إلى نفسية العربي البسيطة والواضحة التي استمدت من الإسلام ما عزز فيها حبها للصادق والصحيح من المعاني**))(50)، فلم يكن البلاغيون متعسفين يحاسبون المبدع على جعل النص معبراً عما يقبله العقل, عندما يطالبونه بجعل النص مطابقا للواقع, ولكنهم رسموا للعقل دور المرافق الخفي الضابط للإبداع الذي ((**يبقى كضوء خافت لا يسطع فينير التجربة إنارة تامة, ولا يتألق حتى يمحو ظلالها بل أنه ضوء في ظلمة يهدي لكنه لا ينير**))(51).ان معيار صدق النص يقربه من أن يوصف بالأدبية والإبداع أكثر لأنّ للحقيقة العقلية مكانة ممتازة في النص الأدبي لأن الدرجة الأدبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما فيه من الصواب(52).

المبحث الثاني /العقل والمستوى التصويري في النص /

إن للعقل دوراً كبيراً في إنتاج المعاني من خلال إعادة ربط الأشياء وتغيير الإسناد بين الموجودات والتخلي عن العلاقات المتداولة مما يضع بين يدي المبدع عالماً واسعاً من الأدوات والصور والعلاقات التي تعينه في إنتاج النص وبنائه. وكان العقل يسعى إلى خلق عالم آخر مواز لعالم الحقائق يعيد فيه المبدع صناعة موجوداته وتشكيلها من خلال نص خاص به وهذه الأدوات هي:

المجاز العقلي والحقيقة

شكّل العقل والاحتكام إلى الربط بين الموجودات فيه مرتكز البلاغيين العرب– ولاسيما بلاغيو القرن السابع الهجري– في تعريف المجاز والتفريق بينه وبين الحقيقة لأن إصابة ما هو عليه اللفظ في اللغة يدخله في حيز الحقيقة وانظر إلى فخر الدين الرازي محتكماً إلى العقل وهو يقول: ((**فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل, وواقع موقعه, فهي حقيقة مثاله: ((خلق الله العالم, وانشأ العالم)) وكل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل, لضرب من التأويل, فهي مجاز**))(53).

فالحقيقة واقعة ضمن الفعل العقلي وأدوات التصديق فيه وليست بحاجة إلى ضرب من التأويل لأن العقل مشترك بين الناس في مقابل أن غياب الربط العقلي المعهود بين الأشياء سيجعل من الألفاظ والجمل دائرة في فلك المجاز ومن ثم فإن المتلقي بحاجة إلى التأويل وأعمال الفكر لإعادة ربط الأشياء لأن الاسنادات بين الأشياء لم تأت على المعهود ومن هنا لابد من تصرف عقلي يعيد رسم الأشياء بغية إدراك المقصود ومن دون هذا التصرف العقلي سيبدو النص أشلاء وقطعاً ًلا رابط بينهما وصوراًلا يمكن تخيلها وانظر إلى فخر الدين الرازي قائلا: ((**لأننا إذا قلنا:**

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ　　　ـر كرُّ الغداةِ ومرُّ العشي

فلا شك أنّا لم ننقل صيغة ((أشاب)) إلى غير مفهومها الأصلي, بل المجاز فيه أن الشيب إنما– يحصل بفعل الله, تعالى, ونحن لم نسنده إليه, بل أسندناه إلى مرّ الغداة, وإسناده إلى قدرة الله, تعالى, حكم ثابت له, لذاته, لا بسبب وضع واضع. فإذا أسندناه إلى غيره فقد نقلناه عمّا يستحقه لذاته في الأصل, فيكون التصرف في حكم عقلي, فيكون المجاز عقليا))(54).

وقدّم الرازي اعتراضات على من يعدّ ذلك المجاز لغوياً, وبعد أن يقدم جملة من تلك الاعتراضات يقول: ((**فإذا أثبت أنّ صيغ الأفعال غير منقولة عن موضوعاتها الأصلية, صيغ الفاعلين أيضا غير منقولة عن موضوعاتها الأصلية, ثبت أن المجاز في نسبة تلك الأفعال إلى أولئك الفاعلين, فيكون المجاز واقعا في أمر عقلي**))(55).

لقد وضع الرازي للعقل مكانة كبيرة في النص, فقد عدّ كل مجاز في النص مجازاً عقلياً وناقش رأي عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) الذي ذكر بأنه ليس من الواجب في هذا النوع من المجاز أن يكون للفعل فاعل مقدر إذا أنت نقلت الفعل إليه وعدت به إلى الحقيقة فمثلا أن تقول في (ربحت تجارتهم), (ربحوا في تجارتهم) فذلك الأمر لا يتأتى مع القول (أقدمني حقٌ على إنسانٍ) فلا يصح فاعل للقدوم غير الحق وفي قول القائل:[البسيط]

وصيّرني هواكَ وبي　　　لِحَيني يُضْرَبُ المثلُ(56)

فلا تستطيع أن تضع فاعلا فالاعتبار أنّ المعنى الذي دل عليه الفعل موجود في الكلام على حقيقته, فمعنى اللفظ موجود على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه, وإذا لم يكن المجاز في نفس اللفظ كان لا محالة في الحكم بأنه حقيقة(57).

ولقد ردّ الرازي بأن الفعل يستحيل صدوره إلاّ من الفاعل, فالإسناد أما حقيقي إسناد الفاعل الأصلي وأما أن يسند إلى شيء هو مستند لذاته إليه, وهذا أمر محال[58] فقال: ((**فأما قولك: ((أقدمني بلدَك حقٌ لي)): فالأقدام عبارة عن فعل القادر للقدوم. والقادر في فعله للشيء لا يحتاج إلاّ إلى الداعي, وهو العلم والاعتقاد يكون الفعل مصلحة.. ذلك هنا حاصل, لأنه علمه بأن له في تلك البلدة حقا هو الحامل له على ذلك الفعل. وإذا ثبت ذلك ظهر أنه لا مجاز في هذا الكلام أصلا, لأن الأقدام حاصل. وذلك لا يستدعي إلا الغرض, والغرض هو ذلك الحق. فإذا لا مجاز في هذا الكلام, اللهم إلا أن يقال: ((الداعي هو العلم بذلك الحق, لا نفسه, فيكون مجازا من هذا الوجه, ولكن لو ثبت له ذلك بطل دعواه, لأن المجاز هنا أظهر وجود الحقيقة)**)))[59] ولعل السكاكي لا يبعد حين يرى أن المبنى الأساس للمجاز ليس على مخالفته للعقل وإنما على مخالفته للروابط المعهودة بين الأشياء في ذهن المتكلمين لضرب من التأويل. لأن التأويل وإفادة الكلام خلاف ما عند المتكلم من الحكم به هي ضرب من التصرف العقلي في الكلام وقد قال السكاكي: ((**هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه, لضرب من التأويل, إفادة للخلاف لا بوساطة وضع, كقولك: ((أنبت البقل))... دون أن أقول: ((خلاف ما عند العقل)) لئلا يمتنع طرده بما إذا قال الدهري عن اعتقاد جهل, أو جاهل غيره: ((انبت الربيع البقل))**، رائيا إنبات البقل من الربيع , **فإنه لا يسمى كلامه ذلك مجازا, وإن كان بخلاف العقل في نفس الأمر))**[60].

المدار في تصنيف الجمل ووضعها في المجاز أو خارجه إنما يكون على ما قرّ في ذهن المتكلم من علاقة بين الأشياء وما قرّ في عقله من حكم على إسناد الكلام بعضه إلى بعض فإن وافق الكلام ما قرّ في ذهن المتكلم وعقله كان حقيقة وإن خالف العقل وإن خالف ذلك كان مجازا بمعنى أن ثمة نظرة ستتبلور عند بلاغيي القرن السابع الهجري في أن المعوّل عليه في المجاز هو قصد المتكلم في إسناد الأشياء وليس العقل وإن كان القصد ناظراً إلى ما استقر في العقل ولكن بوصفه شيئا قارا في العقل وليس مطلبا عقليا ومنتجا من منتجاته.

إن المجاز العقلي عند السكاكي قائم على اعتبار قصد المتكلم فهو يفهم من وجود القرينة أو العلاقة التي تؤول المعنى ويفهم بها قصد المتكلم لأن المجاز العقلي يشبه الكذب على اعتبار أنهما خلاف للحقيقة, ولكن الفرق بينهما بما له علاقة وقرينة التي تسمح بالتأويل وإرادة المعنى الحقيقي[61].

التشبيه

لقد أدرك البلاغيون بأن للعقل دورا في التشبيهات, والدليل على ذلك أنهم تحدثوا عن العقل ضمن أهم جزئين في بنية التشبيه (طرفا التشبيه ووجه الشبه). فإذا كان الأديب يخلق من الصور والتشبيهات ما يثير في نفس المتلقي المشاعر والأحاسيس فليس هذا التعامل مع الأحاسيس هو الغاية الأخيرة, فالأحاسيس مجرد وسيلة للوصول إلى عقل المتلقي من خلال محاورته وإثارة عقله فيتحول إلى جزء عضوي من فكر المتلقي ووجدانه[62].

طرفا التشبيه

قسّم فخر الدين الرازي التشبيه باعتبار العقل وتابعه البحراني على عدة أقسام:

- تشبيه معقول بمعقول فقال: ((**تشبيه المعقول بالمعقول، كتشبيه الموجود العاري عن الفوائد بالمعدوم, أو تشبيه الشيء الذي تنتفي فوائده بعد عدمه بالموجود**))[63] إنّ طرفي التشبيه أمر عقلي, فللعقل يرجع إدراك طرفي هذا النوع من التشبيه بمعنى أن العقل يسهم في صنع عالم آخر خلال النص فإظهار الموجود العاري عن الفوائد في صورة المعدوم إنزال للحي الموجود منزلة الميت المعدوم ومن ثم فإن على المبدع أن يوظف هذه السمة في خلق عوالم أخرى توازي أو تضاد عالم الموجودات الأصلي وهنا سيكون النص الجديد كائنا جديدا ضمن عالم الموجودات مما يكسب نصه الحياة والديمومة والتفاعل.

يرى البلاغيون أن التشبيه من حيث الحس والعقل على مراتب منها تشبيه المعقول بالمعقول[64]، الذي يفتح أمام المبدع عوالم لا حد لها وآفاقها تمنح نصه السعة والامتداد, ومنها تشبيه المحسوس بالمعقول[65]، الذي سيحرر النص من قيد الإحساس المادي الذي يبقى النص فيه محدودا مهما طال وامتد ومنها تشبيه المعقول بالمحسوس[66]، الذي يمكن أن يحقق للمجردات وجودا حسيا يدرك بإحدى الحواس ومن ثم فإن على المبدع أن يعي فلسفة كل نوع منها وما يمكن أن يقدمه له من إجراءات ترتفع بنصه وتغني معانيه وصوره فضلا عن البعد النفسي فيها.

إن البلاغيين عندما يقولون مثلاً بضرورة الابتعاد عن تشبيه الحسي بالعقلي إنما ينطلقون في هذا من جهة الإفادة وضرورة الإمساك بالمعنى ويؤكد هذه الفكرة حين يرفض هذا النوع من التشبيه بحجة ((**من فقد حساً فقد فقد علماً**))[67].

يظهر لنا مما سبق من أنواع التشبيه أن لكل نوع من هذه الأنواع في فكر البلاغيين رؤية في ضوء الماهية والغاية وينبغي على المبدع أن يبني نصه بملاحظة هذه الفوارق على وفق ما يريده هو من نصه ولا يمكن للنصوص أن تتحد في الأسلوب لأن المعاني المقصودة متباينة بين النصوص والسياق المقالي لكل نصٍ منتجٍ مباينٍ للآخر.

نظر فخر الدين الرازي إلى (تشبيه المحسوس بالمعقولٍ) منٍ جهةٍ (الإفادة المعنوية) وإدراك المعاني فهو حين مثل له بالقول: ((**الشمس كالحجة في الظهور, والمسك كخلق فلان في الطيب, كان سخيفا من القول**))[68]، لم يضعف من دور العقل وكيف يفعل وهو من المعتزلة الذين يعلون من شأن العقل في كلامهم ومقرراتهم فهي نظرة فلسفية ترى أن تحصيل الأشياء على مراتب منها الحس والعقل وأن الظفر الحسي بالأشياء أقوى من الظفر العقلي لتلك الأشياء ولأنه الخطوة الأولى في الإدراك التي يتساوى فيها البشر في مقابل أنهم يتباينون في إدراكهم العقلي.

وفي قوله عن هذا التشبيه بأنه لا يفهم المقصود منه ((**إلا من له ذهن يرتفع به عن طبقة العامة**))(69)، يظهر لنا أن المتلقي عنده على مراتب ومن هنا فإنه يلمح إلى مسألة مهمة تكمن في ضرورة وعي المنتج الكامل بمراتب متلقي نصه وأن يعمل على مراعاة ذلك وهنا مثلا لا يمكن لصانع النص ومبدعه أن يلقي تشبيهاته في النص من دون أن يراعى هذه الجهة لأن للمتلقي ذي الذهن الثاقب مرتبة ترتفع به عن مرتبة البليد ومن ثم فلا بدمن أن يكون لكل منهما نصه الذي يفهمه, ولا ينبغي التفريط بالنص بل ((**ينبغي أن يكون المثال المحاكى به معروفا عند جميع العقلاء أو اكثرهم بالسجية ولا يحسن أن يكون مما ينكر ويجهل**))(70)، مما يعني أن ثمة خط شروع ليستند إلى فهم العقلاء وشهرة هذا المعنى بينهم. وحسن التشبيه أن ((**يقرن بالشيء الحقيقي في الكلام ما يجعل مثالا له مما هو شبه به على جهة من المجاز تمثيلية أو إستعارية**))(71)، ومثل لذلك بقول أبي تمام:

[الخفيف]

دمنٌ طالما التقتْ أدمعُ المُزْ   ن عليها وادْمُعُ العشّاقِ(72)

فحسن الاقتران بين أدمع العشاق وهي حقيقة وادمع المزن وهي مجاز له موقع استحسان من السمع والنفس(73).

يؤدي العقل في هذه الممازجة بين ما هو حقيقي وما هو مجازي إلى إغناء النص وتقويته من خلال:

1- حسن الموقع من السمع← أثره في إكساب النص قبولاً سمعياً.

2- حسن الموقع من النفس← أثره في إكساب النص قبولاً تصويرياً عقلياً بالجمع بين المتباعدات, والجمع بين المتباعدات أمر عقلي ينبغي الإفادة منه في بناء النص.

يعمل العقل عند حازم على خلق عالم جديد في الأذهان يمثل انعكاسا لعالم الواقع, والنص الأدبي يمثل انعكاسا للعالم المتكون في الذهن بمعنى أن النص الأدبي انعكاس لانعكاس فهو يعمل على ((**تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح حقيقة, أو غير ما هي عليه تمويها وإيهاما**))(74)، وكانت العوالم عند حازم ثلاثة:

1- عالمٌ واقعيٌ.

2- عالمٌ منعكسٌ في الذهن عن العالم الواقعي.

3- عالمٌ فنيٌ متخيلٌ عن العالم المنعكس في الذهن.

ويتمظهر دور العقل في كونه طاقة خلاقة تسير بجانب عالم الوجود الواقعي ولا يمكن النظر إلى هذه العوالم وعلاقتها ببعضها إلاّ من خلال العقل.

وجه الشبه

أعطى البلاغيون لوجه الشبه أهمية في النص لأنه ((**يمثل نقطة الثقل في بنية التشبيه**))(75)، ولاسيما وجه الشبه العقلي الذي يعتمد عندهم على قدرة المتلقي العقلية والذهنية في استخراجه أي أنه لا يفهم من أول الكلام وإنما يحتاج إلى تأويل ودقة فهم, فوجه فخر الدين الرازي عناية المبدع نحوه بتأكيده أنه أعم في التشبيه من وجه الشبه الحسي(76), مثبتا ذلك, بإيراد أمثلة منها:

مثال ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ((**إيّاكم وخضراء الدّمن**))(77)، فطرفا التشبيه محسوسان (المرأة والنبات) ولكن وجه الشبه أمر عقلي وهو مقارنة الحسن الظاهر للقبح الباطن.

الاستعارة والكناية

حذر حازم المبدع عند بناء النص من ابتعاد الاستعارة عن الحقيقة حيث قال: ((**وربما ترادفت المحاكاة و بنى بعضها على بعض فتبعد الكلام عن الحقيقة بحسب ترادف المحاكاة وأدى ذلك إلى الاستحالة. ولذلك لا يستحسن بناء بعض الاستعارات على بعض حتى تبعد عن الحقيقة**))(78)، بمعنى أن حازم أكد دور العقل وجعله ملازما للاستعارة عند بناء النص فهو لا يقبل إلا الحقائق وبه يمكن للمبدع تشكيل الاستعارة الحقيقية عند بناء النص. فوعى البلاغيون للدور التنظيمي للعقل عند بناء النص وهذا الأمر أكدته (جوليا كريستفيا) في النقد الحديث حيث قالت: أن المستوى التركيبي والدلالي في النص, لا يمكن أن يفلت من العقلانية التي تولده وتنظمه(79).

تحدث ابن الأثير عن الكناية ومنحها جانبين (حقيقة ومجاز) فقال: ((**إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز, وجاز حملها على الجانبين معا**))(80)، فتعد الكناية في نظر ابن الأثير أداة طيعة في يد المبدع يوظفها داخل بناء النص كيفما شاء لأنها تعبر عن المعنى الحقيقي والمجازي. وقال في التعريض: ((**اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي**))(81).

يدرك البلاغيون أن ثمة طرائقٌ للدلالة على المعنى المقصود ومن هذه الطرائق السعي إلى إيصال المعنى عن طريق المفهوم كما في (التعريض) ويتوجب على المبدع أن يعرف هذا وأمثاله من طرائق إيصال نصه إلى المتلقي مما يعطيه صفة التجدد. وهذا الأمر أكده الناقد الأمريكي اليوت بقوله أن النص بفعل العقل ((**يملك الشخصية المميزة له وسط طوفان الأعمال الأدبية التي سبقته أو التي سوف تأتي بعده**))(82) فإمكانية العقل على الإدراك والفهم يمكن المبدع من تنويع طرق إيصال المعنى وبذلك تصبح النصوص الأدبية متجددة ومتنوعة في أساليبها وموضوعاتها.

المبحث الثالث /   العقل والمعنى

إنّ الدور الذي يلعبه العقل في إدراك المعنى كبيرٌ جداً, فأعطاه البلاغيون أهميةً في بحثهم البلاغي, فهو عندهم يسهم في إنتاج المعنى, لأنّه يقوم بالتأويل وإظهار المعنى الخفي بواسطة خاصية الإدراك العليا التي يمتلكها ((**فالمعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه**))(83) فالعقل وعاء يحوي المعاني, وينقل حقيقتها كما هي, لأن عمله موضوعي لا مجال لتشويه الحقائق وتزييفها فيه ((**فإذا عبر عن تلك الصور الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في إفهام السامعين وأذهانهم**))(84)، وجعل حازم دور العقل تابعاً للحواس في النص الشعري ((**فالمعاني المتعلقة بادراك الذهن ليس لمقاصد الشعر حولها مدار وإنما تذكر بحسب التبعية للمتعلقة بادراك الحس لتجعل أمثلة لها, أو ينظر حكم في تلك بحكم في هذه , فيكون التمثيل والتنظير فيهما من قبيل تمثيل الأشهر بالاخفى وتنظير الأظهر بالاخفى**))(85)، ومعنى ذلك أن مراد البلاغيين من المبدع عند بناء نصّه أن يجعل الأمور الحسية أساس لتشبيهاته وتأتي الأمور العقلية تابعة لها فيعمل على إبراز الأمور العقلية بتمثيلها بالحسيات, فالمعاني الذهنية تابعة للمعاني الحسية, فما ينتجه العقل تابع لما ينتجه القلب من المعاني, فالانفعال والإحساس أقوى وأكثر ملاءمة للنص الشعري من أمور العقل.

ويرى حازم إن المعاني الذهنية في النص الشعري والمسائل العلمية فيه تؤدي إلى بروده ونفور الناس عنه(86).

نستنتج من ذلك أنّ البلاغيين وبوحي من نظرتهم لماهية النص يرون وجوب الابتعاد عن ذكر (المسائل العلمية) في الشعر لما لها من دور سلبي في إفقاد النص بريقه وحيويته وجعله باردا ينفر الناس عنه.وللعقل أهمية في إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة, وهذا ما أكده ابن مالك في تعريف (علم البيان) فقال: ((**هو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة وبالنقصان, ليحترز بذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه، وإيراد المعنى بهذه الطرق بالدلالات الوضعية غير ممكن, وإنما يمكن بالدلالات العقلية**))(87).

بما أنّ الكلام كله– والنص الأدبي جزء منه– يسعى إلى نقل التجارب الإنسانية وإيضاح المعاني فإن للعقل سلطة كبيرة من حيث أنه المحرك على سلوك السبل المتعددة للوصول إلى هذا المعنى ويظهر ذلك بوضوح في فلسفة (علم البيان) الذي ينبني على (معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة) وهنا يكمن دور العقل في تحديد هذه الطرق والمفاضلة بينها بحسب مقتضى الحال وبحسب الدلالة العقلية, يظهر المبدع المعنى أو يخفيه وذلك بأن يكون لشيء تعلق بآخر, وثان وثالث, فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به لما كان الكلام بشكل عام يسعى فيه منتجه إلى أن يكون مفهوما لدى المتلقي فإن من الخلل البين أن لا يستحضر العقل عند الكتابة وينبغي أن يكون بناء النص على وفق معطيات العقل لما لذلك من أثر في إضفاء سمة المقبولية على النص وإعطائه القدرة على أن يكون عنصر جذب للمتلقي لذلك يقول حازم القرطاجني إذا ((**وضعت صور التركيب الذهني في أجزائه على غير ما يجب فتنكره الإفهام لذلك فقد لا تفهمه على وجهه وقد لا تهدى إلى فهمه بالجملة؛ أو يكون بعض ما يشتمل عليه المعنى مظنة لانصراف الخواطر في فهمه إلى أنحاء من الاحتمالات, أو يكون المعنى قد اقتصر في تعريف بعض أجزائه أو تخييلها على الإشارة إليه بأوصاف تشترك فيها معه أشياء غير أنها لا توجد مجتمعة إلاّ فيه. وكلما كانت الأوصاف في مثل هذا مؤتلفة من أعراض الشيء البعيدة لم تتهد الأفكار إلى فهمه إلا بعد بطء**))(88). فالمعنى في النص عند البلاغيين يتفق مع معايير عمود الشعر العربي عند المرزوقي (ت 421 هـ) لأنها ((**معايير عقلية تستند إلى مدى استجابة العقل لما ينتج أو رفضه ومدى إنطباقها على الواقع**))(89), فقال المرزوقي: ((**إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته, وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال, وشوارد الأبيات– والمقاربة في التشبيه, والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن, ومناسبة المستعار منه للمستعار له, ومشاكله اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما– فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر, ولكل باب منها معيارا**))(90)... **فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب**)), فشرف المعنى يتحقق في قبول العقل له فالعقل هو الصواب ومبادئه هي الصحيحة ففي حالة قراءة النص, تتفتح أمام المتلقي احتمالات كثيرة, فيبدأ عقل المتلقي بالتأويل, وعن طريق التأويل وتعدد القراءة تتضاعف احتمالات النص, ويكون قد ازداد ثراءً وخصبا(91)، فعندما ((**يتعلق الأمر بنص غير مستقل بنفسه في معرفة المراد منه, بل يحتاج إلى غيره, يعاضده في ذلك الأمر, فإن العقل يجد مكانا له فهذا النص يحتاج إلى العقل في استثمار المعنى واستخراج المراد... وفي ذلك يكون دور العقل في الكشف عن المعنى مكافئا لدور النص في ذلك**))(92).

إن دور العقل عند المتلقين في الكشف عن المعنى لا يقل أهمية عن دور العقل عند المنتج في التعبير عن المعنى بل لربما تعدى الأمر ذلك إلى قراءات متعددة لنص واحد والذهاب بالقراءة إلى جهات قد لا تكون مقصودة من المنتج وهنا يكمن دور عقل المنتج في ضرورة أن يجعل من نصه مفتوح الدلالات متعدد القراءات.

خاتمة البحث

1- يعدّ العقل عند البلاغيين في القرن السابع الهجري منظومة يخضع النص الأدبي لنواميسه لأنه يسيطر على عملية بناء النص و ما يصاحبها من انفعالات وضغوطات.
2- عني البلاغيون بدور العقل وعدّوه عاملاً أساسياً عند بناء النص على الرغم من أنهم لم يضعوا مفهوما له ولكنهم كرّسوا جهودهم للخوض في وظيفته وأثره حيث رأينا وجوداً مكثفاً للعقل في المستوى التركيبي والتصويري وفي تأويل المعنى وإظهاره.
3- اخضع البلاغيون الخبر وأقسامه وأساليب الطلب والتقديم والتأخير والإيجاز لمعطيات العقل لأنه المنسق لعملية انتقال الأفكار بين المنتج والمتلقي .
4- ربط البلاغيون بين العقل وقضية الصدق والكذب فصدق الخبر وكذبه وعملية التأويل والاحتراز عن الكذب من شأن العقل ومنحوه دور المرافق الخفي والضابط لأمر المبالغة في التعبير عند بناء النص.
5- شكّل العقل عندهم أساس التفريق بين المجاز والحقيقة فكل ما كان الحكم المفاد من النص على ما هو عليه في العقل فهذه حقيقة وكل ما كان خارجا عن العقل وفيه تأويل فهذا مجاز.
6- أدرك البلاغيون أن المتلقين على مراتب وأوصوا المبدع مراعاة ذلك عند بناء النص فالمتلقي ذي الفهم الثاقب يفهم مالا يفهمه ذي الفهم البليد.
7- للعقل اثر ٌكبيّر في إظهار المعنى بطرق مختلفة حيث يتمكن المبدع من ذلك بوساطة الدلالات العقلية ويعمل التأويل في عقل المتلقي على تعدد قراءات النص بما يزيد النص ثراءً وخصباً.
8- إن ما توصل إليه البلاغيون العرب في القرن السابع الهجري شاع في الدراسات الغربية الحديثة حيث أكدت جوليا كريستيفيا أن المستوى التركيبي والدلالي في النص لايمكن أن يفلتا من أثر العقل .

هوامش البحث/

(1) الحيوان: 1: 207.
(2) ينظر: نقد الشعر: 69.
(3) العقل الشعري: 1: 129.
(4) ينظر: التفسير العلمي للأدب: 236.
(5) أصول النقد الأدبي: 59.
(6)العقل في الشعر بين التشبيه والاستعارة والرمز: إيليا الحاوي: 18: مجلة الآداب: العدد: 12: 1962.
(7)ينظر: الصدق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري: 45.
(8)ينظر : دفاع عن البلاغة: 57.
(9)ينظر: نهاية الإيجاز: 173، 175, مفتاح العلوم: 258: التبيان في علم البيان: 105, منهاج البلغاء: 18.
(10)ينظر: منهاج البلغاء: 106.
(11) ينظر:المصدر نفسه: 173.
(12) ينظر: المصباح في المعاني والبيان والبديع: 159- 160.
(13) نهاية الإيجاز: 15.
(14) مفتاح العلوم: 258.
(15)المصدر نفسه: 256.
(16)المصباح في المعاني والبيان والبديع : 102.
(17)جمالية الخبر والإنشاء: 53.
(18)ينظر : تلخيص المفتاح : 50 -51.
(19) ينظر: مفتاح العلوم: 414- 415.
(20) المصباح في المعاني والبيان والبديع: 149.
(21)المثل السائر : 2: 60.
(22)التبيان في علم البيان: 105.
(23)سورة الإنعام: (الآية) 100.
(24)أصول البلاغة: 99
(25) ينظر: المصدر نفسه: 98- 102.
(26)ينظر: المصدر نفسه: 93- 94.
(27)ينظر: المصدر نفسه: 94.

(28)ينظر: المصدر نفسه: 96.
(29)ينظر: منهاج البلغاء: 174.
(30)مدخل إلى البلاغة العربية: 54.
(31)ينظر: عيار الشعر: 119.
(32)كتاب الصناعتين: 136.
(33)نهاية الإيجاز: 149.
(34)مفتاح العلوم: 254.
(35)ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(36)ينظر: المصدر نفسه: 504.
(37)منهاج البلغاء: 62.
(38)المصدر نفسه: 62- 63.
(39)المصدر نفسه: 72.
(40)المصدر نفسه: 73.
(41)المصدر نفسه: 82، وللإستزادة فيما يتعلق بمسألة الصدق والكذب ينظر: 84 وما بعدها.
(42)ينظر: الخيال المتعقل- دراسة في النقد الإحيائي: جابر عصفور: 63, مجلة الأقلام، العدد الحادي عشر, دار الجاحظ، بغداد، 1980.
(43)تحرير التحبير: 1: 150.
(44)المثل السائر: 2: 28.
(45)ديوان عنترة: 151.
(46)منهاج البلغاء: 73.
(47)ينظر: المصدر نفسه: 75.
(48)المصباح في المعاني والبيان والبديع: 230.
(49)ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(50)الصدق الفني في الشعر العربي: 109.
(51)العقل في الشعر: 18.
(52)ينظر: أصول النقد الأدبي: 226.
(53)نهاية الإيجاز: 173.
(54)المصدر نفسه:الصفحة نفسها
(55)المصدر نفسه: 175.
(56)الأغاني: 20: 256، البيت لمحمد بن أبي محمد اليزيدي.
(57)ينظر: دلائل الإعجاز: 229- 230.
(58)ينظر: نهاية الإيجاز: 178.
(59)المصدر نفسه: 178- 179.
(60)مفتاح العلوم: 503.
(61)ينظر: فلسفة المجاز: 166- 167.
(62)ينظر: التفسير العلمي للأدب: 24- 25.
(63)نهاية الإيجاز: 189، وينظر: أصول البلاغة: 70- 71.
(64)ينظر المصدر نفسه :الصفحة نفسها.
(65)ينظر: المصدر نفسه: 190.
(66)ينظر: المصدر نفسه: 189.
(67)المصدر نفسه: 190.
(68)المصدر نفسه : الصفحة نفسها.
(69)المصدر نفسه: 199.
(70)منهاج البلغاء: 112.
(71)المصدر نفسه: 128.
(72)شرح الصولي لديوان أبي تمام: 2: 148.
(73)ينظر: منهاج البلغاء: 128.
(74)المصدرنفسه: 120.
(75)البلاغة العربية قراءة أخرى: 146.
(76)ينظر: نهاية الإيجاز: 199- 200.
(77)الفائق في غريب الحديث: 1: 327.

(78)منهاج البلغاء: 94- 95.
(79)ينظر: علم النص: جوليا كريستفيا: 46.
(80)المثل السائر: 2: 171.
(81)المصدر نفسه: 2: 175.
(82)التفسير العلمي للأدب: 23- 24.
(83)منهاج البلغاء: 18.
(84)المصدر نفسه: 18- 19.
(85)المصدر نفسه: 29 – 30.
(86)ينظر: المصدر نفسه: 30.
(87)المصباح في المعاني والبيان والبديع: 159- 160.
(88)منهاج البلغاء: 173.
(89)عمود الشعر/ قراءة في معيارية الحكم/ مشتاق عباس معن: 115، مجلة أبواب: العدد 28: د. ت.
(90)شرح ديوان الحماسة: للمرزوقي: مقدمة الشارح: 9.
(91)ينظر: العقل الشعري: 2: 197.
(92)بنية العقل العربي: 2: 74.

أولا- الكتب:

القرآن الكريم

المصادر القديمة:

- ❖ أصول البلاغة: للإمام العلامة كمال الدين ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ): تحقيق: الدكتور عبد القادر حسين، دار الثقافة، الدوحة- قطر ، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
- ❖ الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ): شرحه وكتب هوامشه: الأستاذ عبد علي مهنا، منشورات محمد علي بيضون (دار الكتب العلمية)، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
- ❖ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن: لابن الزملكاني:(651 هـ) تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، الدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م.
- ❖ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، إشراف: محمد توفيق عويضة، الجمهورية العربية المتحدة- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ .
- ❖ تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع: للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن(739 هـ): قرأه وكتب حواشيه وقدم له: الدكتور ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- ❖ الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255 هـ): تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.
- ❖ دلائل الإعجاز في علم المعاني: تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني(471 هـ): وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت- لبنان ، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- ❖ ديوان عنترة بن شداد: اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
- ❖ شرح ديوان الحماسة: لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١هـ): نشره: أحمد أمين، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م.
- ❖ شرح الصولي لديوان أبي تمام: دراسة وتحقيق للدكتور خلف رشيد نعمان، وزارة الإعلام- الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى.
- ❖ عيار الشعر: لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور طه الحاجري، الدكتور محمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة- مصر.
- ❖ الفائق في غريب الحديث: تأليف العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
- ❖ كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): تصنيف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ): تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
- ❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: تأليف ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري: حققه وعلق عليه: الشيخ كامل محمد محمد عويضة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

- ❖ المصباح في المعاني والبيان والبديع: تأليف الإمام أبي عبد الله بدر الدين بن مالك الدمشقي الشهير بابن الناظم (ت ٦٨٦هـ): حقق الكتاب وقدم له بدراسة في تاريخ البلاغة: الدكتور عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون (دار الكتب العلمية)، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
- ❖ مفتاح العلوم: تأليف أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)): تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- ❖ منهاج البلغاء وسراج الأدباء: صنعة أبن الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ): تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م.
- ❖ نقد الشعر: لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ): تحقيق: كمال مصطفى، الناشر مكتبة الخانجي بمصر، مكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٣م.
- ❖ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: تأليف الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ): تحقيق ودراسة: الدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

المراجع الحديثة

- ❖ أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية للنشر والطبع، القاهرة- مصر، الطبعة العاشرة، ١٩٩٤م.
- ❖ البلاغة العربية قراءة أخرى: الدكتور محمد عبد المطلب، دار نوبار للطباعة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- ❖ بنية العقل العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية): الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٧م.
- ❖ التفسير العلمي للأدب نحو نظرية عربية جديدة: الدكتور نبيل راغب، دار نوبار للطباعة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- ❖ جمالية الخبر والإنشاء (دراسة جمالية بلاغية نقدية): الأستاذ الدكتور حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ٢٠٠٥م.
- ❖ دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.
- ❖ الصدق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري: الدكتور عبد الهادي خضير نيشان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- ❖ علم النص: جوليا كريستيفا: ترجمة فريد الزاهي: مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- ❖ فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث: الدكتور لطفي عبد البديع، دار نوبار للطباعة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- ❖ مدخل إلى البلاغة العربية (علم المعاني- علم البيان- علم البديع): الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، الأردن.

ثانيا- الدوريات:

- ❖ الخيال المتعقل (دراسة في النقد الإحيائي): جابر عصفور، مجلة الأقلام، العدد الحادي عشر، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٠م.
- ❖ العقل في الشعر بين التشبيه والاستعارة والرمز: إيليا الحاوي، مجلة الآداب، العدد ١٢، ١٩٦٢م.
- ❖ عمود الشعر العربي (قراءة في معيارية الحكم): الدكتور مشتاق عباس معن، مجلة أبواب، العدد ٢٨ .